

مقدمة

مرحبًا بالجميع، رجالًا ونساءً. أهلاً بكنّ في عيون على غزة، لقاءنا اليومي الذي يجمع بين الاحتجاج والتعلم. اليوم هو اليوم الأول والأخير للأسبوع الرابع عشر من عيون على غزة. خلال الأسابيع الثلاثة القادمة سنعمل أيضًا بصيغة مصغرة من لقاءين أسبوعيًا، كي تتمكن من توجيه نظرنا إلى الداخل في محاسبة النفس في أيام الرهبة، وكذلك توجيه النظر إلى غزة، للمسائلة عما نفعله هناك. ولكي نبدأ، نستضيف اليوم البروفيسور يغيل ليفي، عالم الاجتماع ورئيس معهد الجامعة المفتوحة لدراسة العلاقات بين المجتمع والجيش.

فقط هذا الصباح نشر مقالة في صحيفة هآرتس قال فيها، من بين أمور أخرى:

"رؤيتنا في السير نحو إسبيرة ليست الحبة المرة التي طُلب منا فجأة ابتلاعها. أثينا، بحسب خيالنا الذاتي، هي المسؤولة عن قتل آلاف النساء والأطفال والمدنيين، وعن تدمير البنى التحتية المدنية في غزة، وعن اقتلاع مئات الآلاف من البشر، وتقليص متوسط أعمارهم في المستقبل. أثينا هي التي باسمها نفذت طياروها وجنودها جرائم حرب متسلسلة منذ اليوم الأول للحرب — جرائم حرب تلثت حولها تدريجيًا موافقة دولية، وأيضًا داخلية، على أنها إبادة جماعية."

البروفيسور ليفي سيحاول اليوم الإجابة على سؤال مرتبط بهذا الموضوع، لكنه مختلف، وهو: هل الجيش يتفكك؟ سيتحدث لمدة ثماني دقائق، وبعد ذلك سنترك وقتًا لنقاش قصير. من ترغب بطرح سؤال، يمكنها كتابته في الدردشة وسأقرأه له. شكرًا جزيلاً يغيل لانضمامك إلينا، المنصة لك.

المحاضرة

شكرًا جزيلاً، أبلّيت، شكرًا لكم جميعًا. شكرًا أيضًا لبعض الأشخاص الذين أعرفهم، لن أذكر الأسماء الآن، لكن من الجميل أن أراكم.

في تصريح شهير جدًا في تموز 2016، ظهر رئيس الأركان آنذاك، غادي آيزنكوت، أمام لجنة الخارجية والأمن في الكنيست. كانت تلك أيام قضية/يلور عزريّا. وقد طرح سؤالًا، ربما كان بلاغيًا وربما لا:

"إن كان أحد يريد روح العصابة، فليقل."

"العصابة"، وفق المفهوم المتعارف عليه، هي جماعة عنيفة ترتبط في داخلها بروابط عائلية أو شخصية قوية، وتعمل بشكل مستقل، بالتأكيد ليست خاضعة لهيكلية قيادية ما، وأحيانًا تخضع لقوة خارجية.

وسؤال آيزنكوت كان يهدف في جوهره إلى دعم جهوده في محاكمة عزريّا، وهو موضوع كان مثيرًا للجدل في ذلك الوقت. ويبدو أن آيزنكوت لم يتقدّم كثيرًا بعد محاكمة عزريّا، إذ بدأت تظهر في الجيش علامات "العصابة"، أو "تحوله إلى ميليشيا"، منذ تلك القضية، وبشكل أوسع في الحرب الحالية، خصوصًا في الجيش البري.

وفي الحرب الحالية، نرى سلسلة من الظواهر الشاذة جدًا:

نرى انحرافات عن أوامر إطلاق النار، نرى إدخال مدنيين إلى مناطق القتال، ونرى ظاهرة غير مسبوقة — وربما حتى على مستوى عالمي — وهي أن الجنود يصوّرون أنفسهم وينشرون مقاطعهم على وسائل التواصل الاجتماعي، يتحدثون فيها أو يرفعون لافتات فيها تحدّ للقيادة العسكرية العليا، وأحيانًا حتى للحكومة المنتخبة نفسها. مثلاً، المطالبة بالعودة إلى غوش قطيف.

نرى أفعال نهب يعرضها الجنود ويفتخرون بها، ونرى تفاخرًا بتدمير المباني وحرقتها وظواهر شاذة أخرى.

رأينا قصة "شارة المسيح"، حيث خرج الجنود عن قواعد اللباس الرسمية، وهذا أيضًا نوع من التحدي.

ونرى أيضًا صعوبة في فرض الانضباط حين يتدخل السياسيون.

المثال الكلاسيكي، غير المسبوق، هو اقتحام قاعدة سديه تيمان — حيث تسببت عملية روتينية للشرطة العسكرية بالتحقيق، بأن دعا الجنود السياسيين، وهؤلاء — بمن فيهم وزير في الحكومة — اقتحموا القاعدة.

السؤال المهم، طبعًا، هو لماذا يحدث هذا؟

أحد التفسيرات البديهية هو الإرهاب. الجيش يقاتل منذ وقت طويل، والجنود مرهقون. هذا بالضبط التفسير الذي قدّمته لجنة برئاسة جنرال عيّنها الجيش نفسه لبحث هذه المسألة.

لكن هذا تفسير سهل جدًا، خصوصًا أن معظم هذه الظواهر ظهرت في الأشهر الأولى من الحرب، حين لم يكن الجيش بعد مرهقًا.

تفسير آخر، يتناول الأشهر الأولى تحديدًا، هو انهيار النظام — المدني، وبالتالي العسكري أيضًا — في هذه الحرب، إذ إنها بدأت أساسًا من نوع من الانهيار.

مثلاً، نرى فتح أبواب الجيش أمام لاعبين مدنيين، بل وخاصين، لتزويده ببعض احتياجاته، وخطأً بين العسكر والمدنيين.

تفسير آخر هو اهتزاز الثقة بالقيادة. نرى ذلك أيضًا في أبحاث داخل الجيش، ويمكن رؤيته في تعامل المستوى السياسي مع الجيش، وهذا الاهتزاز بطبيعة الحال ينعكس في صعوبة فرض الانضباط.

تفسير إضافي هو قوة المساومة النسبية للجنود.

نحن نعلم أنه في الظروف التي يُلقى فيها عبء ثقيل على أكتاف قلة نسبية — كما هو الحال في هذه الحرب، منذ بدايتها تقريبًا — سواء من الجنود النظاميين أو جنود الاحتياط، فإن أولئك الذين يخدمون فعليًا، خصوصًا في مناصب خطيرة، يرون أنفسهم مميزين، ويعتقدون أن لهم الحق بالمطالبة من الدولة والجيش بحماية خاصة، وامتنيازات إضافية، بما في ذلك الحق في التصرف بطريقة لا تُنجم عنها عقوبات قانونية أو تأديبية.

لكن هناك تفسيرًا آخر مهمًا جدًا: صراعات الهوية.

فالجيش، وفق فهمي على الأقل، انخرط منذ الانفصال (عن غزة) في سلسلة من صراعات الهوية. هناك مجموعتان رئيسيتان تحاولان تحدّي الأكواد (القيم والأنماط) التي وضعتها الطبقة الوسطى العلمانية التي شكّلت تاريخيًا الجيش الإسرائيلي.

الأولى هي المجموعة الحريدلية — القومية الدينية المتشددة، المبنية على شبكة كثيفة من "يشيفوت هسدير" والمعاهد العسكرية الدينية، بقيادة الحاخامات، وتمثلها سياسيًا/صهيونية/دينية (حزب الصهيونية الدينية).

أما الثانية، فقد وصفتها قبل سنوات بأنها "مقاتلو الياقات الزرقاء" — طبقة وسطى وما دون، يغلب عليها الطابع الشرقي التقليدي. أبرز تعبير عن تمرّد مقاتلي الياقات الزرقاء كان قضية/يلور عزريا عام 2016، لكنها لم تكن القضية الوحيدة.

إلى حدّ ما، يمكن النظر إلى ما يجري في غزة كنوع من التعبير عن صراعات الهوية — أي رموز الهوية التي يدمجها الجنود في سلوكهم، ويستخدمونها لتحدي ثقافة الجيش ونظام سلطته.

على سبيل المثال، "شارة المسيح" ليست مجرد مسألة زيّ، بل تحدٍ للطابع العلماني وللسلطة العلمانية للجيش.

تعبير واضح جدًا عن ذلك هو عودة خطاب الانتقام إلى الواجهة — خطاب كان غير مشروع، ويُعتبر كذلك في الثقافة السياسية الإسرائيلية وفي الثقافة السياسية داخل الجيش نفسه.

أي أنه رمز للانتقام لم يعد يخل من ممارسة العنف، وهو رمز يستمد جذوره من الشريعة (الهلاخاه) عبر نموذج "عمّاليق" وإحيائه مجددًا في هذه الحرب أيضًا.

يجب أن نفهم أن خطاب الانتقام ليس مجرد خطاب، بل له تعبيرات فعلية في الحياة اليومية، وفي تبرير الأفعال اليومية، التي لم تأت عيبًا بنا إلى ما نحن فيه.

العودة إلى غوش قطيف أيضًا هي نوع من التعبير عن كود مهم جدًا في الخطاب الديني القومي المتشدد، وفي دافعهم لتغيير وجه الجيش كي لا يعود لإخلاء المستوطنات.

تفسير آخر هو أيضًا التورط السياسي، الذي يضعف قدرة الجيش على فرض النظام، وهو مرتبط أيضًا بصراعات الهوية داخل الجيش، التي يحاول السياسيون — خصوصًا من اليمين — دعمها.

وفي النهاية، لسنا معفيين من السؤال:

هل ما نراه هو مجرد حادثة؟ خلل؟ أم أنه أمر مقصود؟

ربما هو نوع من تفويض الصلاحيات من الجيش إلى الوحدات الميدانية من خلال تخفيف الأكواد والتعليمات، والتسليم بسلوك فوضوي، بل وتشجيعه كجزء من "روح القتال" المطلوبة في هذا العصر.

وهكذا يمكن القول إن "روح الميليشيا" التي حذّر منها غادي آيزنكوت في حينه، أصبحت الآن شيئًا يُغذّي روح القتال العسكرية، ومن هذا المنظور، فإن تآكل الانضباط العسكري، أو الادعاءات بتفكك الجيش، ليست إلا شكل الحكم العسكري الجديد.

شكرًا جزيلاً.